ألم الموت والفراق

الموت هذه الكلمة التي تهز الكيان وتقطع الأكباد خوفاً ورعشة من نهاية المطاف إما إلى سرور وإما إلى بكاء.

الموت يخافه الملوك وتهابه السلاطين ويقهر عنده الأقوياء.

شرح الحديث:

الحب أعظم شيء في الوجود، وأحلى ما في الوجود الحب الإلٰهي.

من أحبَّ لقاء الله أحب الله لقاءه، لأن المؤمن يبشر برضوان الله تعالى عند الموت وما في الجنّة فيحبّ الموت ولقاء الله تعالى، والإنسان لا يستطيع أن يحبّ لقاء الله تبارك وتعالى قبل أن يحبّ الله لقاءه، فتجتمع الإرادات على نفس المنوال، فيحصل حبّ من الجهتين حبّ المولى لعبده، وحبّ العبد لسيّده، ومن كره لقاء الله تعالى لِما يرى حين الموت مكانه في جهنّم، ومن شدة العذاب فيكره لقاء هذا المقام، ويكره الله لقاءه، وهذا مقام أهل الغفلة والمعصية بأفعالهم الشنيعة، ولا يتوبون فيقترب منهم الموت وهم لا يشعرون فيرون ما قدّمت أيديهم، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُصّلَت، الآية: ٤٦] .

خروج الروح

وأخرج البزار حديثاً مرفوعاً لفظه:

«إذا أراد الله بعبدٍ خيراً بعث إليه ملكاً من عامه الذي ينتهي فيه عمره فيُسدده وييسِّر أموره، فإذا كان عند موته أتاه ملك الموت فقعد عند رأسه فقال: «أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرةٍ من الله ورضوان»، فذلك

يحبّ الله ويحب الله لقاءه، وإذا أراد الله شراً بعبده بعث الله إليه شيطاناً من عامه الذي يموت فيه فيغويه ويلهيه عن ذكر الله تعالى، فإذا كان عند موته أتاه ملك الموت فقعد عند رأسه فقال: «يا أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخطٍ من الله وغضب فتتفرق في جسده فذلك حين يبغضُ لقاء الله ويبغضُ الله لقاءه».

وفي الدعاء المأثور: «اللهم اجعل خير عملي خاتمته، وخير عمري آخره».

روي عن النبي ﷺ أنه كان عنده قدحُ من ماء عند الموت، فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول: «**اللهم هوّن عليّ سكرات الموت**» وفاطمة رضي الله عنها تقول: «واكرباه لكربك يا أبتاه»، وهو يقول: «**لا كرب على أبيك بعد اليوم**».

قال عليه الصلاة والسلام: «**إن العبد ليعالج كرب الموت وسكراته، وإن مفاصله ليسلِّم بعضها على بعض تقول: عليك السلام تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة**».

نداء الأرض كل يوم

كل يوم تنادي الأرض خمس نداءات، ويسمعها كل تقي ومحب للآخرة:

يا ابن آدم تمشي على ظهري، وسوف تسكن في بطني.
يا ابن آدم تضحك على ظهري، وسوف تبكي في بطني.
يا ابن آدم تفرح على ظهري، وسوف تحزن في بطني.
يا ابن آدم تذنب على ظهري، وسوف تعذب في بطني.
يا ابن آدم تأكل الحرام على ظهري، وسوف يأكلك الدود في بطني.

رسائل عند سكرات الموت

قيل في الآثار: عند خروج الروح ينظر المحتضر بعين البصيرة، لقوله

تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق، الآية: ٢٢] وأول ما يرى المحتضر أمامه الملكان رقيب وعتيد، لقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق، الآية: ١٨] إن كان صالحاً يأتيان فيقولان: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، يجيب المحتضر بلسان حاله: وعليكما السلام ورحمة الله وبركاته، يقولان: جزاك الله عنّا خير الجزاء، أي مجلس خير أحضرتنا، وأي كلامٍ طيب أسمعتنا جزاك الله عنا خير الجزاء، سنلتقي يوم القيامة. وإن كان من أهل الغفلة ـ وأعاذنا الله ـ فيقولان: لا جزاك الله عنا خير الجزاء، أي مجلس سوء أحضرتنا، وأي كلامٍ قبيحٍ أسمعتنا لا جزاك الله عنا خير الجزاء، سنلتقي يوم القيامة.

ثم يأتي ملك الموت عزرائيل عليه السلام فيقول: «أيها العبد كم خبر بعد خبر، وكم رسول بعد رسول، وكم بريد بعد بريد، أنا الخبر الذي ليس بعدي خبر، وأنا الرسول الذي ليس بعدي رسول، أجب ربك طائعاً أو مكرهاً». فإذا قبض روحه تصارخوا عليه، فيقول عزرائيل عليه السلام: «على من تصرخون وعلى من تبكون؟ فوالله ما ظلمت له أجلاً، ولا أكلت له رزقاً، بل دعاه ربّه، فليبك الباكي على نفسه، فإن لي فيكم عوداتٍ وعودات حتى لا أبقي منكم أحداً».

صيحات وإنذارات للميت

قيل في الآثار:

إذا حمل الميت على نعشه، رفرفت روحه فوق النعش وهو ينادي:

يا أهلي، ويا ولدي، لا تلعبنَّ بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال من حِلّه ومن غير حِلّه ثمّ خلفتُه لغيري، فالمال لكم والعذاب عليَّ.

ويقال: إذا فارقت الروح البدن، نودي من السماء ثلاث صيحات:

يا ابن آدم أتركت الدنيا؟ أم الدنيا تركتك؟ أجمعت الدنيا أم الدنيا جمعتك؟ أقتلت الدنيا أم الدنيا قتلتك؟

إذا وضع على المغتــل نودي من السماء بثلاث صيحات:

يا ابن آدم، أين بدنك القوي ما أضعفك! أين لسانك الفصيح ما أسكتك! وأين أذنك السَّماعة ما أصمّك؟ وأين أحباؤك الخلّص ما أوحشك؟

إذا وضع في الكفن نودي من السماء بثلاث صيحات:

يا ابن آدم: طوبى لك إن صحبك رضوان الله، والويل لك إن صحبك سخط الله.

يا ابن آدم: طوبى لك إن كان مأواك الجنان، والويل لك إن كان مأواك النيران.

يا ابن آدم: تذهب إلى سفرٍ بعيد بغير زاد، وتخرج من منزلك فلا ترجع إليه أبد الآباد، وتصير إلى بيت الأهوال.

إذا حمل على الجنازة نودي من السماء بثلاث صيحات:

يا ابن آدم: طوبى لك إن كان عملك خيراً، وطوبى لك إن كنت مطيعاً.

إذا وضع للصلاة عليه نودي من السماء بثلاث صيحات:

يا ابن آدم: كل عمل عملته تراه الساعة فإن كان عملك خيراً تراه خيراً، وإن كان عملك شرًّا تراه شراً.

إذا وضعت الجنازة على شفير القبر نودي من السماء بثلاث صيحات:

يا ابن آدم: ما تزودت من العمران لهذا الخراب؟ وما حملت من الغنى لهذا الفقر؟ وما حملت من النور لهذه الظلمة؟

إذا وضع في اللحد نودي بثلاث صيحات:

يا ابن آدم: كنت على ظهري ضاحكاً فصرت في بطني باكياً، وكنت على ظهري فرحاً فصرت في بطني حزيناً، وكنت على ظهري ناطقاً فصرت

في بطني ساكتاً.

إذا أدبر الناس عنه يقول الله تعالى له:

«يا عبدي بقيت فرداً وحيداً وتركوك في ظلمة القبر، وقد عصيتني لأجلهم، وأنا أرحمك اليوم رحمة يتعجب منها الناس، وأنا أشفق عليك من الوالدة بولدها».

قيل لحسان بن سنان: ما تشتهي؟

قال: ليلةً طويلة أصليها كلها.

قيل: وكيف نجدك؟ قال: بخير إن نجوت من النار.

سيدنا علي يتكلم مع الموتى

دخل سيدنا علي كرم الله وجهه مقابر المدينة ونادى: «يا أهل القبور السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تخبروننا بأخباركم أم نخبركم؟ فسمع صوتاً يقول: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أخبرنا بما كان بعدنا». قال الإمام علي ﷺ: «أما أزواجكم فقد تزوجت، وأما أموالكم فقد اقتسمت، وأما الأولاد فقد حشروا في زمرة اليتامى، وأمّا البناء الذي شيدتم فقد سكنه أعداؤكم، فهذه أخبار ما عندنا فما أخبار عندكم؟» فأجابه الميت: «قد تخرقت الأكفان، وانتشرت الشعور، وتقطعت الجلود، وسالت الأحداق على الخدود، وسالت المناخير بالقيح والصديد، ما قدّمناه وجدناه، وما خلّفناه خسرناه، ونحن مرتهنون بالأعمال».

نداء الأرواح

قيل: إن أرواح المؤمنين تأتي كل يوم إلى السماء الدنيا ويقفون بجانب بيوتهم، وينادي كل واحد بصوت حزين: يا أهلي وأقاربي وولدي... يا من سكنوا بيوتنا، ولبسوا ثيابنا، واقتسموا أموالنا، هل منكم من يذكرنا ويتفكرنا في غربتنا؟ ونحن في سجنٍ طويل، وحصن شديد، ارحمونا يرحمكم الله ولا تبخلوا علينا قبل أن تصيروا مثلنا.

أقوال شقيق البلخي

في روض الرياحين لليافعي عن شقيق البلخي أنه قال: طلبنا خمساً فوجدناها في خمس.

١ ـ طلبنا ترك الذنوب فوجدناها في صلاة الضحى.

٢ ـ وطلبنا ضياء القبور فوجدناه في صلاة الليل.

٣ ـ وطلبنا جواب منكر ونكير فوجدناه في قراءة القرآن.

٤ ـ وطلبنا عبور الصراط فوجدناه في الصوم.

٥ ـ وطلبنا ظلّ العرش فوجدناه في الخلوة.

على ماذا بكى أبو هريرة ﷺ

حكي أن أبا هريرة ﷺ قال لرفيقٍ له: أين تذهب؟

قال: أشتري شيئاً لأهلي.

فقال أبو هريرة له: إن قدرت أن تشتري الموت لي فافعل، فإنه طال شوقي إلى ربي، وإن الموت أحبُّ إلي من شربِ الماء البارد للعطشان، وأحلى من العسل، ثم بكى بكاءً شديداً، وقال: واشوقاه لمن يراني ولا أراه، وغشي عليه.

دعاء الموت

وحكي أن الحارث بن عمرو الطائي مرض بأرمينية، فيوماً من الأيام استقبل القبلة، وصلى ركعتين ثم قال في آخر سجوده: اللهم إني أسألك باسمك الذي هو قوام الدين، وبه ترزق العالمين، وبه تحيي العظام وهي رميم، إن كان لي خيرٌ عندك فعجّل في قبضي، ثم سكت فحركوه فإذا هو ميت.

وقال مالك بن دينار ﷺ:

كان لي رفيق، وكان من العارفين فمرض، فحضرته لأعوده ـ أي

أزوره ـ فإذا هو رافع بطرفه نحو السماء وقال: اللهم إن كنت تعلمُ أني أحبُّك فبارك لي في لقائك، فلم يتم كلامه حتى مات.

متى نحب الموت؟

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يتمنينَّ أحدكم الموت لضُرٍّ نزل به، فإن كان لا بدّ فاعلاً فليقل: اللهم أحيني ما دامت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي**»(١).

متى ضحك عزرائيل ومتى بكى؟

قيل: سئل عزرائيل ـ ملك الموت ـ هل ضحكت قطّ؟

قال: نعم، ضحكت مرّة وبكيت مرّة. ضحكت لرجلٍ ساوم على حذاء لا يبلى قبل خمس سنين وقد قبضته وهو يساومه. وبكيت لامرأة لها يتيمان من أبيهما صغيران، أرادت اجتياز نهر، فأخذت أحدهما، ووضعته على ضفة، ورجعت لأخذ الآخر، أُمرت بقبضِ روحها، فقبضتها فغرقت، فبكَيتُ لِفرقة الطفلين الصغيرين، وموت أمهما، فأطلعني الله أن أحدهما سيكون ملكاً في المشرق، والآخر ملكاً بالمغرب، والله سبحانه هو مصرف الأمور.

الأرض تبكي على المؤمن أربعين صباحاً

روي عن عبد بن حميد أبو الشيخ في العظمة عن مجاهد رحمه الله أنه قال: ما مات مؤمناً إلا وبكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً. فقيل له: أتبكي؟ فقال: أتعجبون؟ وما للأرض لا تبكي على عبدٍ كان يعمرها بالركوع والسجود، وما للسماء لا تبكي على عبدٍ كان لتكبيره وتسبيحه دويّ كدويّ النحل؟!

السماء تبكي والأرض تبكي

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ

(١) رواه البخاري ومسلم.

﴿وَٱلْأَرْضُ﴾ [الدّخان، الآية: ٢٩] وهل تبكي السماء والأرض على أحد؟ فقال: نعم إنه ليس أحدٌ من الخلائق إلا له بابٌ في السماء ينزل منه رزقه، وباب يصعد فيه عمله، فإذا مات المؤمن فأُغلِقَ بابه من السماء فقدَه فبكى عليه، وإذا فقده مصلاّهُ من الأرض التي كان يصلي فيها ويذكر الله تعالى فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم يكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض.

موت معاذة العدوية

كانت إذا جاء النهار قالت: هذا يومي الذي أموت فيه، فما تنام حتى تُمسي، وإذا جاء الليل قالت: هذه ليلتي التي أموت فيها فما تنام حتى تصبح، وكانت تحيي الليلَ صلاةً، فإذا غلبها النوم قامت فجالت في الدّار وهي تقول: يا نفس النومُ أمامك، لو رقدتِ لطالت رقدتُك في القبر على حسرةٍ أو سرور. وكانت تصلي كل يومٍ وليلةٍ ستمائة ركعة.

وكانت تقول: عجبتُ لعين تنام وقد عرفت طولَ الرُّقادِ في ظلمِ القبور، ولم ترفع معاذةُ رأسها إلى السماء أربعين عاماً.

ولما احتُضرت معاذة للموت بكت ثم ضحكت فقيل لها، فقالت: أما البكاء، فإني ذكرت مفارقة الصلاة والصيام والذكر، فكان البكاء، وأما تبسمي فإني نظرت إلى أبي الصهباء، وقد أقبل عليه حُلّتان خضروان، في نفرٍ ما رأيتُ لهم في الدنيا شبهاً، فضحكتُ إليه. أبو الصهباء هو زوجها، وكان قد مات قبلها، وكان زوجها من الأتقياء ومن التابعين الصالحين (صلة بن أشيم) رحمهما الله تعالى.

لذّة الموت عند الأولياء

قال يزيدُ الرقاشي: دخلتُ على عابدٍ بالبصرة، وأهلُ بيته حوله، قال: فبكى أبوهُ فنظر إليه وقال: ما يبكيك؟ قال: أبكي فقدَك. فبكت أمهُ فقال: ما يبكيك؟ قالت: أبكي فراقك، وما أتحمل من الوحشة بعدك. فبكى صبيانه وأهلهُ، فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: نبكي فراقك وما نتعجل من اليتم

بعدك. فقال: أقعدوني، ألا كلكم يبكي لدنياي؟ أما فيكم من يبكي لآخرتي؟ أما فيكم من يبكي لما يلقاه وجهي من التراب في القبر، أما فيكم من يبكي لمُساءلةِ منكر ونكير إيايَ؟ أما فيكم من يبكي لوُقوفي بين يدي ربي ﷻ؟ قال: ثم صرخ صرخةً فمات رحمة الله تعالى عليه.

ما يرشد إليه الحديث تربوياً ودعوياً:

١ ـ الموت بألمه وشدته ووجعه خير للمؤمن لأنه يكفّر عن سيئاته، ويرفع به درجاته، وفي كلٌّ خير.

٢ ـ يجب أن نغتنم حياتنا قبل موتنا، وغنانا قبل فقرنا، وفراغنا قبل شغلنا، وعافيتنا قبل مرضنا، وشبابنا قبل هرمنا، لأن الموت أقرب إلينا من حبل الوريد.

٣ ـ عسى أن يكون الموت الذي نخاف منه أمان لنا واطمئنان لأنه لا سعادة إلا بلقاء الأحباب كما قال سيدنا بلال الحبشي عند الاحتضار: «غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه». ونتخلص بهذا من زمن الفتن، وفي هذا الزمن يبيع الرجل دينه وعرضه بعَرَض من الدنيا.

obeikandl.com